مجلة الآداب، م٢٨، ع٣، ص ص ١٣٣ - ١٥٩، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٦م/١٤٣٧هـ)

الهوية في سرد المهجر المكتوب بالعربية" تحت سماء كوبنهاغن "أنموذجًا

أبو المعاطي خيري الرمادي(*)

أستاذ الأدب والنقد الحديث المشارك، قسم اللغة العربية وآدابها،

جامعة الملك سعود – الرياض

(قدم للنشر في ٧/ ٧ / ١٤٣٦هـ،وقبل في ٢٩/ ٥/ ١٤٣٧هـ)

الكلمات المفتاحية : الهوية ، سرد المهجر ، الغربة، الاغتراب.

ملخص البحث: تبرز قضايا الهوية جلية في الأدب العربي المكتوب في المهجر، بسبب الصراع الأبدي بين الشرق والغرب، والثقافات المتعارضة في جزء منها مع المعتقد الديني، واختلاف المكان، وألم الغربة والاغتراب، وما ينتج عنهما من صراعات نفسية، والحنين إلى الذكريات، والإصرار على تهميش الوافد، والرغبة في تأكيد الذات. وقد تناولت روايات كثيرة الهوية موضوعًا لها، بعض هذه الروايات تبنت إبراز الوجه البطرياركي الحقيقي للغرب المتشدق بالحرية والعدالة، وبعضها انشغل بحرص العربي على عدم اندثار مقومات شخصيته، وبعضها اهتم بتشظي الهوية _ ومنها مدونة الدراسة _ ولعلها أكثر الروايات صدقًا في تناول قضايا الهوية، بوقوفها على مسافة واحدة من الذات والآخر.

(*)يتقدم الباحث بوافر الشكر لعمادة البحث العلمي، ومركز بحوث كلية الآداب بجامعة الملك سعود، لتفضلهما بدعم هذا البحث.

Identity In the Narrrative of Diaspora narrative written in Arabic Under The Sky of Copenhagen As A Model

Abuelmaaty khiri alramady

Associate Professor of modern literature and criticism Arabic department – college of arts –, KAU

(Received 7/7/1436H; Accepted for publication 29/5/1437H)

Keywords: Identity, Narration of the diaspora literature, Alienation, Estrangement.

Abstract. The issues of identity emerge clearly in the Arabic literature written in Arab diasporacommunities across the world due to the eternal clash between the East and West, the cultures that come into conflicts with the religious belief, difference of the place, pain of the alienation and estrangement, and the psychological conflicts that come out of them as a result, nostalgia for the memories. Insist to marginalize the expatriates, and desire for self-assertion .There are many novels written on these issues that made the identity issue as their subject. Some of them opted to show the real patriarchy face of the West that always boasts for the liberty and justice, while some others showed the intense care of Arab diaspora communities of not to let the ingredients of their personality diminish. Some of these novels also explored the fragmentation and dissolve of the identity in Arab diaspora communities. One of such novels is “Mudawwana Al Dirasa”. Perhaps it is the most honest novel in dealing with the issues of identity, by exploring the same distance of self and the other.

١ - توطئـــــة

(تيمة) الهوية في سرد المهجر المكتوب بالعربية، أي: السرد المبدع خارج حدود الوطن، بسبب هجرة أو تهجير أو نفي، (تيمة) أساسية لا يخلو منها نص. ولا غرابة في ذلك، فاختلاف الثقافات والعادات والتقاليد في مجتمعات المهجر، عن ثقافات وعادات وتقاليد الوطن، إضافة إلى التمييز، والعنصرية، ومحاولات التهميش المستمرة، والرفض الصريح للمسلمين خاصة؛ يؤجج داخل النفس الإحساس بالغربة والاغتراب، والشعور بتدني الأنا أمام الهو، والرغبة في التمرد، ومحاولة إثبات الذات، والحنين إلى الوطن، أو تأكيد الانتماء للمهجر، والدفاع عن أحقية العيش فيه، لا سيما ممن ولدوا وشبّوا بعيدًا عن أوطان آبائهم، الحائرين بين الواقع (المهجر)، بلغته وثقافته وعاداته وتقاليده، والتاريخ/ وطن الأسرة، بقيمه وأمجاده ولغته ودينه. وهي: مجموعة أحاسيس ورغبات _ بتناقضها _ منتجة (لتيمات) تصبُّ كلها بصورة مباشرة أو غير مباشرة في معين الهوية، ولا يستطيع المبدع المهَجَّر/ المنفي/ المهاجر الفكاك من أسر سيطرتها على ذاته، ولا يستطيع تجاهلها في إبداعه.

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على أنماط الهوية في سرد المهجر، وآليات تجسيدها فنيًا، من خلال رواية "تحت سماء كوبنهاغن" للروائية العراقية حوراء النداوي، والإجابة من خلال ذلك عن سؤالين: الأول: ما خصائص نص الهوية في سرد المهجر المكتوب بالعربية؟ والثاني: هل توجد علاقة بين (التيمة) وعناصر السرد؟

انتخبت الدراسة رواية حوراء النداوي دون غيرها لعدة أسباب: أولها: جودتها الفنية التي أوصلتها إلى القائمة الطويلة لجائزة (البوكر) العربية، والثاني: تنوع أشكال الهوية داخل المتن الحكائي، والثالث: استغلال الكاتبة كافة الآليات المتاحة _ وعلى رأسها النص المحيط _ لبلورة رؤيتها للهوية، والرابع: عدم المباشرة في عرض موضوع الهوية، فمن الممكن أن تقرأ الرواية من زوايا أخرى عديدة.

تتكون الدراسة من تمهيد يوضح مفهوم الهوية، والعلاقة بين الهوية والأدب، والتعريف بالنص، ومبحثين: الأول أنماط الهوية. تتناول فيه الدراسة الهوية المنفتحة على الأنا، والهوية المنفتحة على الهو، والثاني: آليات تجسيد (التيمة)، وفيه تتناول الدراسة الآليات الفنية التي اعتمدت عليها الرواية لتجسيد الهوية فنيًا، وتنتهي الدراسة بخاتمة توضح أهم النتائج.

سُبقت هذه الدراسة بدراسات عدة، اهتمت بقضايا الهوية، مثل: دراسة الدكتور إبراهيم الشتوي "أبحاث في الهوية، دراسات في الرواية العربية" (الشتوي، ٢٠١٠م)، التي تناول فيها بالدراسة رواية "سفينة وأميرة الظلال" للروائية مها الفيصل، ودراسة الباحثة نورة فرج" ارتباكات الهوية: أسئلة الهوية

والاستشراق في الرواية العربية الفرنكوفونية" (فرج،٢٠٠٧)، التي تناولت فيها بالدراسة رواية "الحزام" للروائي السعودي أحمد أبو دهمان، ودراسة الباحثة سهيلة بريوة " التصادم الثقافي وصراع الهويات في رواية كيف ترضع الذئبة دون أن تعضك"(مجلة أصوات/ إلكترونية)، ودراسة الباحث عبدالجبار ربيعي " هوية السرد وسرد الهوية في رواية صحو الكلام للأستاذ عيسى مومني" (مجلة أصوات/ إلكترونية)، ودراسة الدكتور أحمد صبرة "قلق الهوية في الرواية النسائية السعودية.. الوارفة لأميمة الخميس نموذجًا " (صبرة، ٢٠١٢م)، ضمن كتابه متعة السرد، ودراسة أحمد حيدر " إعادة إنتاج الهوية" (حيدر،١٩٩٧م)، ودراسة سعيدة بن بوزة " الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب" (بوزة،٢٠٠٧م). وهي دراسات لم تتعرض للهوية في سرد المهجر، ولا إلى أنماط الهوية وآليات تجسيدها، الأمران المشكلان عصب هذه الدراسة.

١ـ١ـ مفهوم الهوية:

ذاع مفهوم الهوية (بضم الهاء) عالميًّا وعربيًّا في نهايات العقد الستيني من القرن الماضي، متزامنًا مع حركة صعود المد القومي في بلدان العالم الثالث، وتغير خريطة العالم بعد استقلال الأقليات. وهو من المفاهيم التي حيرت _ ومازالت _ أصحاب المعاجم والباحثين المهتمين بالدراسات الفلسفية والأنثربولوجية، ولعلَّ السبب كامن في أنَّ مفهومها " مفهوم متحرك يشتبك فيه التجريد النظري بالممارسة التاريخة " (عبدالهادي، ٢٠٠٥م: ٢٧٥)، إذ لم تقدم المعاجم العربية للفظة هوية معنى شاملًا يميزها عن غيرها من المصطلحات قريبة الصلة منها، مثل الأنا، والخصوصية، والماهية، فهي في المعجم الوجيز تعني: الذات (المعجم الوجيز، ١٩٩٧م: ٦٥٤)، وفي المعجم الوسيط: تعني حقيقة الشيء أو الشخص، التي تميزه عن غيره (المعجم الوسيط، ١٩٨٩م: ٩٩٨). وهما: تعريفان فضفاضان، خصوصًا أن حقيقة الشيء في حركة دائمة ترفض الثبات، وتتحكم فيها أوضاع المجتمع الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والذات: لفظة مطاطة لا يمكن تحديد ملامحها بسهولة، وتعددت تعريفات الفلاسفة لها، وإن كانت كلها تدور في فلك واحد، فالشريف الجرجاني في كتابه التعريفات يقول: "إنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب "(الجرجاني، ١٩٨٧م: ٣١٤). ويقول عنها الفارابي: إنها كلمة اشتقها المترجمون الأوائل من الـ هو لينقلوا " بها الأمكنة التي تستعمل فيها أستين في اليونانية، وهست بالفارسية... وجعلوا المصدر منه الهوية... ورأى آخرون أن يستعملوا مكان تلك الألفاظ بدل الهو لفظة الموجود، وهي لفظة مشتقة ولها تصاريف، وجعلوا مكان الهوية لفظة الوجود " (الفارابي، د.ت: ١١٣)، ومع ذلك فقد

"فرضت كلمة الهوية نفسها كمصطلح فلسفي يستدل به على كون الشيء هو نفسه" (الجابري وآخرون، ١٩٨٦م: ٨٢١). وهي تعريفات تلتقي مع ما نجده عند فلاسفة اليونان القدامى خاصة أرسطو الذي يعرِّف الهوية بأنها: "وحدة الكائن، أو هي وحدة لتعدد الكائنات، أي وحدة الكائن الواحد المنظور إليه باعتباره متعددًا؛ إذ حينما نقول – على سبيل المثال –: إن الشيء الواحد متطابق في ذاته، إنما ننظر إليه في نفس الآن كما لو كان شيئين، وفي نفس المنحنى [1] يذهب فولتير الذي يرى الهوية مصطلحًا علميًّا لا يعني سوى الشيء نفسه، ويمكن ترجمته إلى اللغة الفرنسية بمعنى التساوي. ولا يخرج هيجل وغيره من فلاسفة الغرب عن هذا الجذر التعريفي المؤسس لمفهوم " الهوية " الذي نقلت المعاجم والموسوعات الفلسفية المعاصرة صياغته بنفس المعنى؛ حيث دأبت على عدّ الهوية "مقولة تعبر عن تساوي وتماثل موضوع، أو ظاهرة ما مع ذاته، أو تساوي موضوعات عديدة " (هالبيرن/ نسخة إلكترونية)[2]. وهي تعريفات تجمع _ كما هو ظاهر _على أنَّها ما يكون به الشيء هو ذاته، متمايزًا عن غيره من الأشياء، وتشير إلى " المبدأ الدائم الذي يسمح للفرد بأن يبقى هو هو، وأن يستمر في كائنه عبر وجوده السردي، على الرغم من التغيرات التي يسببها أو يعانيها" (علوش،١٩٨٥ م:٢٢٥)، مع الوضع في الحسبان أنَّ ما يتحدد به الشيء متغير غير ثابت.

والهوية نوعان: هوية فردية تختصّ بالصفات الجسدية التي تميز كل إنسان عن غيره من البشر، كبصمات الأصابع، وبصمة العين، وبصمة الصوت، وهي هوية فطرية. وهوية قومية، هي " مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى أمة من الأمم، التي تجعلهم يُعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأمم الأخرى"(نعمان، ١٩٩٥م: ٣٢)، وهي هوية مكتسبة، وغير قابلة للثبات، ترتبط أشد الارتباط بطبيعة نشأة الفرد، وتنمو مع "تعزيز ثقافة الأفراد وتوسيع آفاقهم التاريخية والفكرية والثقافية والإنسانية التي تعزز وعيهم بأمتهم وانتمائهم إليها " (النوري،

(١) وردت هكذا في النص المقتبس، والصواب المنحنى نفسه.

(٢) يمكن الرجوع إلى تعريف أرسطو للهوية في كتابه (ما وراء الطبيعة)، تحقيق عبدالرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م، ص ٩ وما بعدها، وكتاب ابن رشد الأندلسي (تفسير ما بعد الطبيعة)، تحقيق عاطف العراقي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٤م ص ٢٤ وما بعدها. ويمكن الرجوع إلى تعريف فولتير لها في معجمه الفلسفي= Dictionnaire philosophique: ou la raison par alphabet)= Septième edition rareprem iere partie) نسخة موجودة على رابط http://books.google.com.sa/books?hl . ويمكن الرجوع إلى تعريف هيجل لها في كتاب (المنطق الجدلي) لهنري لوفيفر، ترجمة إبراهيم فتحي، دار الفكر العربي المعاصر، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م، ص ٢٢وما بعدها.

٢٠٠٢م:٢٣٢)، وهي الهوية التي شغل بها الأدب شعراً ونثراً.

١ـ٢ : الأدب والهوية:

من أهم وظائف الأدب المحافظة على هوية الأمة والملامح الكبرى المشكلة وجودها وكيان أفرادها، حتى تستطيع الصمود أمام التيارات المضادة، المتجددة باستمرار. تيارات التهميش، واجتثاث الهوية، واستلاب الثقافة، وازدراد الحضارات، وهي وظيفة ارتبطت بالأدب (شعرًا ونثرًا)، كما ارتبطت بغيره من إبداعات الإنسان الحقيقية، ولعل مردّ ذلك إلى طبيعة النظم الأدبي، وقوة تأثير صياغته، بما تحمل من عناصر إيقاعية وجمالية ونفسية، قادرة على استلاب روح الإنسان من واقعها المادي والتحليق بها في عوالم تخيلية يسهل فيها توجيهها وإعادة تشكيلها. وقد اعتمدت الأمم الكبرى والأقليات المستبعدة على الأدب_ بجوار أسلحة أخرى _ اعتمادًا كبيرًا لإبراز كيانها، وتحديد ملامح هويتها التي تميزها عن غيرها، والمحافظة على هذه الملامح من الاندثار والذوبان في هويات أكثر قوة وأعرق حضارة، لكن اعتماد الأقليات على الأدب_ مهما اختلف شكله _ سلاحًا يدافع عن هويتها من الاندثار، أمام نفسها، على الأقل، يبدو أكثر وضوحًا وأعظم مادة. ومن هذه الأمم، الأمة العربية المسلمة في شتى بقاع المعمورة. فقد أدَّى الشعر _ ومازال _ دورًا عظيمًا في تأكيد الوجود العربي الإسلامي [٣] كيانًا له ملامح منذ هاجر الرسول الكريم _ صلى الله عليه وسلم _ من مكة إلى المدينة. فلم يكن شعر حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، وغيرهم، مجرد حوائط صد تمنع هجمات الراغبين في محو الأمة الوليدة، بقدر ما كان تأكيد وجود، وتحديد ملامح هوية جديدة. وفي العصرين الأموي والعباسي ظهرت فنون أدبية أخرى غير الشعر كان لها دورها الملحوظ في المحافظة على الهوية، مثل الخطابة، والمقامة، اللتين لعبتا دورًا كبيرًا في مقاومة تيار الشعوبية الذي بلغ أوجه في العصر العباسي الثاني، ونجحتا في استيعاب الكثير من الفنون الفارسية، والهندية، واليونانية، وتغليفها بغلاف عربي، استفاد منها ومنع تأثيرها الهدّام، وبجوارهما كان الأدب الشعبي الذي امتدح البطل العربي وبالغ في تصوير شمائله.

١ـ٣ـ النص:

تحكي الرواية المكونة من عشرين فصلًا عن معاناة هدى ابنة العشرين عامًا، المولودة في الدنمارك نهايات

(٣) الإسلام لا ينفك عن العروبة أبدًا، ذلك أن القرآن الكريم، وهو دستور المسلمين، لغته هي اللغة العربية، وكان الإسلام العامل الأول في بناء الدولة العربية والإمبراطورية فيما بعد. انظر محمد الغزالي " حقيقة القومية العربية " نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٨م ص ١٢، ويوسف خليل يوسف: القومية العربية ودور التربية في تحقيقها، رسالة دكتوراه، مخطوطة، كلية التربية جامعة عين شمس، ١٩٩٨م ص ٨٠.

القرن الماضي لأبوين عراقيين متحررين غادرا العراق هربًا من جبروت النظام الحاكم، باحثين عن الحرية والحياة في وطن جديد يسمح للإنسان بالعيش كما يشاء.

تسير معاناة هدى في ثلاثة مسارات متوازية تلتقي في مناطق (مرحلة عمرية) ليست متباعدة، فيقلب الالتقاء حياتها رأسًا على عقب. المسار الأول: مسار العنصرية التي شعرت بها مبكرًا في سني حياتها الأولى، عندما أقصاها " كلاوس" _ زميل الروضة الذي كان بهجة طفولتها المبكرة _ عن عالمه، لا لشيء إلا لأنَّها تخالفه في لون البشرة. وهو إقصاء لازمها طوال سني الدراسة، وازداد بعد ارتدائها الحجاب، وطلب أمها من إدارة المدرسة عدم تقديم لحم الخنزير لها في وجبة المدرسة، وعدم ارتدائها (المايوه) في حصة السباحة، وعدم استحمامها مع الطالبات بعد حصة الرياضة، فقد كان تمييزها سببًا في بُعد زملائها عنها، فشعرت بالغربة والاغتراب، وحلمت بأن يكون لها وطن " ليتني كنت في وطن أملكه، وأفرض فيه شروطي، وأقصي كل من يتهمني بالاختلاف، أكون أنا السيدة فيه، أنا أقرر... أنا أتحكم" (النداوي،٢٠١٠م:٩٨)، وخارج حرم المدرسة واجهت إقصاءً أشد، من دنماركيين سكارى يطلبون منها الرحيل عن بلدهم. والمسار الثاني: تشتتها بين الشرق والغرب، فلم تستطع أن تكون الشرقية الأصيلة، ولم تستطع أن تكون الدنماركية الحقيقية، عاشت بنفس منشطرة، لا تستطيع الإعلان صراحة عن ميلها لأحد الشطرين، ففي مجتمع المهجر ما أن تتجرأ على تفضيل أحد الشطرين على الآخر حتى تنشطر الكرة الأرضية إلى نصفين: واحد يبصق في وجهك لقلة وفائك، والآخر يهلل للشيء ذاته، لقلة وفائك (النداوي،٢٠١٠م: ٩٦)، و من أجل الحياة الهادئة في المهجر تنازلت مكرهة عن شرقيتها، واجتثت الوطن من أعماقها، الوطن بتاريخه وعاداته وتقاليده ولغته ودينه،" علمت أني كي أعيش بسلام كان لزامًا علي أن أجتث بلدي من قلبي" (النداوي،٢٠١٠م: ٩٩)، فانشطرت نفسها التائهة، وباعد التيه بين الشطرين. والمسار الثالث: طبيعتها الجسدية التي جعلت منها " فتاة غير مرئية، غير محسوسة" (النداوي،٢٠١٠م: ٣٠٢)، مجرد مراهقة بجسد" يبدو وكأنه ينمو نموًا عكسيًا فيتضاءل أكثر، ويتمسك بمعالمه الطفولية رافضًا الانتقال إلي دنيا صارت تشتهي فيه ما يدل على أنوثة (النداوي،٢٠١٠م: ٢٧٣)، فأقصيت من عالم الإناث وعاشت كنهر " معكر لا يقبل عليه إلا من هو على وشك الموت عطشًا أو الموت تطفلًا (النداوي،٢٠١٠م: ١٣٦)، وبجوار المعاناة تحكي الرواية عن العلاقة الأفلاطونية بين هدى ورافد الشاب العراقي الذي يكبرها بقرابة عشر سنوات ويشاركها رواية الأحداث، وعلاقتها بـ(توربن)

الدنماركي العجوز الذي يكبرها بأربعين سنة، وعلاقة هدى بأخيها عماد الذي لحق بالأسرة في المهجر بعد عشرين عامًا قضاها مع جديه في العراق، وحياة العراقيين وغيرهم من العرب في المهجر.

٢ـ أنماط الهوية:

المتابع لنصوص الهوية المكتوبة بالعربية في سرد المهجر _ بالمفهوم السابق _ يرى أهم ما يميز الهوية العربية الإسلامية فيها تأرجحها بين أمرين: الأول الرسوخ والثبات ورفض الآخر بالانفتاح على الأنا. وهي هوية انعزالية، تستدعي عنف الهو وتؤجج نيران كراهيته، والثاني البينية، بمعنى الوقوف على حدود هويتين، لا سطوة لإحداهما على الأخرى، بالانفتاح على الأنا والهو في آن واحد. وهي هوية تجبر المهاجر/ المهَجَّر/ المنفي على أن يعيش حياة مهجنة، ذاته فيها مشتتة بين ثقافتين، وانتمائه حائر بين وطنين. وهي هوية ترتبط_ غالبًا_ بالجيل الثاني من أبناء المهجر الذين شبوا على ثقافة الآخر، ولغته، وعاداته، وتقاليده، وإن كان ذلك لا يمنع وجود أنصار لها من حديثي العهد بالهجرة / النفي.

٢ـ١ : الهوية المنفتحة على الأنا:

نقصد بها الهوية القائمة على انتماء واحد، وهي هوية انعزالية لا ترى في الآخر غير الاختلاف معه، وتنظر له نظرة عدائية مضمونها أنَّه الجحيم. والانفتاح على الأنا في المهجر/ المنفي ليس _ بالضرورة _ نتيجة إيمان بالأنا وعاداتها وتقاليدها وتاريخها وثقافتها؛ فقد يكون نفسيًا، لرغبة في خلق عالم افتراضي تعيش فيه الشخصية لتنسى الواقع الجديد، لكنه في النهاية وسيلة – قد تكون غير مقصودة – تحافظ على الهوية الأم. وهو انفتاح يتساوى فيه العربي والغربي، مع اختلاف في الأداة، فعلى حين يتقوقع العربي داخل ذاته، يتفنن الغربي في إبراز ذاته.

يظهر جليًا في سرد المهجر الحرص على تضخيم الأنا العربية، من الجيل الذي عاش معاناة الرحيل عن الوطن بحذافيرها. الوطن بزخمه الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والتاريخي. الوطن بحلوه ومره، بفقره وغناه، بحروبه وسلامه، بعدله وظلمه. وهو تضخيم دافعه _ في مدونة الدراسة_ عند البعض إيماني بحت، وعند البعض الآخر نفسي خالص. ويمكن بلورة آليات تضخيم الأنا العربية في: الانعزال عن الآخر، وتشكيلات المكان الجديد، والحنين إلى الماضي واجترار الذات.

أ) الانعزال عن الآخر:

تميل الشخصية – عادة – للانعزال عندما تشعر باختلافها عن الآخرين داخل المنظومة المجتمعية، بسبب العرق، أو المعتقد، أو الثقافة، التي تشكل مجموعة العادات والتقاليد المتحكمة في آليات وطبيعة التعامل مع الآخر ورؤية الأنا. وهو انعزال وقائي، يراه المنعزل سياجًا غير مرئي يحميه من التلاشي في

الآخرين، الأقوياء بالكثرة المُدَعِّمة القدرة على فرض الرأي والثقافة والعادات والتقاليد. وتعدُّ بيئة المهجر _ بسب الغربة والاغتراب _ أكثر البيئات خصوبة لنمو بذور الرغبة في الانعزال.

تنعزل أسرة أبي حسن العراقية الشيعية عن المجتمع الدنماركي بثقافته وعاداته وتقاليده، وعن العرب المحيطين بهم، المختلفين معهم في المذهب. فالأسرة المكونة من: أب، وأم، وأربع بنات، وولدين، لا علاقة لها بالحياة من حولها، تنظر للعالم من خلال نافذة الصغيرين، فاطمة ورضا، تلك النافذة التي سرعان ما أغلقت عندما شعرت الأسرة ببشائر اندماج مع الآخرين. وهو انعزال ذو بعد إيماني، فالأسرة المتدينة المتمسكة بتعاليم الدين ترفض الاندماج مع الآخر (الغربي ـ العربي) خوفًا على عقيدتها.

فنرى الأب والأم رافضين أية بادرة تواصل مع الجيران العراقيين المختلفين معهم في المذهب، ومع الذين لا يتمسكون بتعاليم المعتقد من أهل مذهبهم، فيمنعان الصغيرة فاطمة عن هدى.

ـ كيف تقفين مع أولئك البنات؟

ـ كنت أقف مع هدى، لم أقف معهن.

ـ إني أقصد هدى أيضًا.. من الآن فصاعدًا لن أسمح لك باللعب معها.

ـ لكنها عراقية.

ـ إنها شر من الدنماركيات إذا كان هؤلاء أهلها، أب سكير، وأخت ساقطة، وأخ عابث، أقطع ذراعي إن لم يكن بعثيًا.

قالت الأم:

ـ ألم تري كيف وقفت تتحدث بوقاحة مع الدنماركيتين بينما تستلقي تلك العارية..أهلها لا يربون، إنهم يخلِّفون ويتركون أطفالهم للدنماركيين ليربوهم لهم. (النداوي،٢٠١٠م: ٧٢، ٧٣).

وينعزل محمد والد هدى عن محيطه الاجتماعي انعزالًا نفسيًا بعد فشله في تحقيق ذاته وتقاعده(*) " قبل أوان تقاعده بسنين" (النداوي،٢٠١٠م: ٦٣). لم يجد في المهجر الحرية التي يحلم بها رجل مبدأه " في الحياة هو ألا يكون له مبدأ " (النداوي،٢٠١٠م: ٥٩)، تلك الحرية التي مارسها بحذافيرها في بغداد قبل الهجرة، وقيدتها كوبنهاغن، فآثر العيش على هامش الحياة بلا دور، تنهش فيه الغربة "لتترك ما تبقى منه قابعًا في المنزل " (النداوي،٢٠١٠م: ٦٣)، متقوقعًا على (أناه) العراقية.

عندما حاول هذا الأب الخروج من شرنقة الذات بالسعي للاندماج داخل مجتمع الجالية، صُدم في تكوينه الأيديولوجي المحتم على الراغب في العيش داخله أن يختار بين واحد من اثنين " إما الليبرالي وعلى

(*) لم تخص الرواية خوضًا صريحًا في هذه النقطة، لكن سياق الأحداث، والصورة التي بدا عليها الأب داخل المحكي تدل على ذلك.

رأسه الشيوعيين، وإما المحافظ حدّ التشدد، وعلى رأسه الإسلاميين" (النداوي،٢٠١٠م: ٩١)، فلم يَرُقْه محيطه، واستسلم للانعزال الذي حافظ له على هويته العربية، فظل - كما تقول هدى- " الصدق الوحيد الصامد بين طيات زيفنا المتعددة " (النداوي،٢٠١٠م: ١٩٨).

قد يفهم انعزال الأب على أنَّه انعزال مرضي، نتيجة لعدم القدرة على الفعل داخل مجتمع كل ما فيه مختلف عما درج عليه ورسخ في أعماقه، لكن المدقق في منمنمات المحكي يرى انعزاله من أجل أناه؛ ففي الرواية إشارات متناثرة بين طبقات الحكي تحيل إلى أنَّ العزلة اختيارية، وخوفًا على الذات من الاندثار، منها حرص الأب على اجترار ذكريات ماضيه وطبيعة هذا الاجترار، ودقة اختياره لاسمي ابنتيه المولودتين في المهجر (نخيل، هدى)، ففي اسم الأولى رغبة في امتداد الجذور نحو الوطن البعيد، وفي اسم الثانية رغبة في الهداية وعدم الضياع.

وفي الرواية انعزال جمعي، فالجالية العراقية، لاسيما الشيعية، تفرض حول نفسها سياجًا يحميها من الذوبان في الجاليات الأخرى، ويحافظ على هويتها. فأم حسن تدعو النساء العراقيات إلى (مجلس)، وكانت مجالسها تتكون من ثلاثة عناصر محددة: " العنصر الأول الطعام، والثاني الكلام الذي يتزامن مع مضغ الطعام، والثالث جو روحاني يتمثل بقراءة بعض السور القرآنية والأدعية " (النداوي،٢٠١٠م: ٥٥). وهو طقس ديني _ مثل كل الطقوس الدينية _ يصبُّ إحياؤه في بوتقة الهوية.

لقد جعلت الرواية الانعزال آلية من آليات المحافظة على الهوية القومية، وحماية الأنا من الاندثار. فمحمد والد هدى الذي يعدُّ أكثر الشخصيات صلاحية لسلب الهوية، وإعادة تشكيل الذات، بسبب فكره الرافض لكل ما يقيد حريته، بما في ذلك الدين، تظل هويته مادة صلبة غير قابلة للذوبان في آتون الآخر، وغير قابلة لإعادة التشكيل بما يتوافق مع ثقافة البيئة/ المهجر، ويظل الصدق الوحيد في عالم كل ما فيه مسخ، وأسرة أبي حسن لم يطرأ عليها داخل المحكي أية تغيرات تدل على تحولها نحو الآخر، لكن الرواية لم تقبله قبولًا كاملًا؛ ففي غير موضع عدته تمييزًا ممقوتًا مولِّدًا للعداوة في المجتمعات الغربية. وهذا ليس تناقضًا في الرؤية؛ فهو _ في رأيي _ تجسيد فني لحالة عدم التوازن، ورسم توضيحي للشخصية الحائرة بين الأنا والهو.

ب) تشكيلات المكان الجديد:

المكان من الخارج والداخل أهم علامات إثبات الهوية، وصناعة وجود للأنا، وهذا ليس عجيبًا؛ فالمكان ليس مجرد مساحات يشغلها الإنسان ويتنقل فيها، بل هو تاريخ، وثقافة، ووجود، وحياة، هو عنوان الإنسان، والصورة المعبرة عن خارجه وداخله،

"يبدو كما لو كان خزانًا حقيقيًا للأفكار والمشاعر والحدوس، حيث تنشأ بينه وبين الإنسان علاقة متبادلة يؤثر فيها كل طرف على الآخر"(المحادين،٢٠٠١م: ٢٥)، فيعرف المكان بصاحبة، ويعرف المرء بمكانه، فليس عجيبًا أن تكون "هوية المكان جزءًا من هوية الإنسان " (العوفي،١٩٨٧م: ٥٧٠).

تؤدِّي ملامح المكان الخارجية دورًا في التعريف بقاطنيه ومستواهم الاجتماعي، وفي بعض الأحيان تشير إلى انتماءاتهم الدينية، ومكوناته الداخلية ذات صلة بسلوكيات أصحابه، وتكمن فيها إشارة إلى العادات السائدة في حيزه، ومجموعة التقاليد المنظمة العيش فيه، كما أنَّها _ لاسيما في المهجر _ وسيلة للتغلب على الإحساس بالغربة والاغتراب، لذا يحرص المهاجرون وغير المهاجرين على تشكيلات المكان، انطلاقًا من أنَّها مرآة عاكسة للذات، ومعادل موضوعي للهوية. فعندما يبدو المكان بلا ملامح مميزة، أو حاملًا لملامح خارجية عامة صالحة لأكثر من مكان، فإنَّ ذلك بالضرورة ينعكس على هوية قاطنيه فتبدو باهتة، يصعب الإمساك بملامحها العامة، بله ملامحها الخاصة.

نرى الحرص على السمة الشرقية في بيت أسرة أبي حسن، تلك الأسرة العراقية التي " سُفِّرت من قبل النظام العراقي إلى إيران بحجة أنهم إيرانيو الأصل " (النداوي،٢٠١٠م: ٥٣)، فذاقوا في إيران مرارة العيش في المخيمات، وتعرفوا على ألم الإقصاء، فهاجروا إلى الدنمارك بحثًا عن وطن لا يلفظهم. حرصت هذه الأسرة منذ وصولها الدنمارك على سمْتها الشرقي "بيتهم فيه الوثارة الفارسية، والوداعة العراقية، حيث الدقة المتناهية في كل شيء، والأثاث الكلاسيكي المكـــدس بطريقـة منظمة غير مرتبكة "(النداوي،٢٠١٠م: ٥٣، ٥٤).

وفي الشقة التي رافق فيها عماد امرأة دنماركية، حرص على السمت الشرقي أيضًا، وإن كانت مساحته محدودة بالنسبة لحجم المكان، وطبيعة شخصية عماد "هنا وهناك... تمثال لجمل ملتحف بسجادة عربية، موضوع على طاولة صغيرة نائية في أقصى ركن في الصالة، وصورة لكثبان رملية " (النداوي،٢٠١٠م: ٢٨٤).

هذا السمت الشرقي افتقدته هدى في بيتها التي أسهبت في وصفه، **وهو إسهاب فني**، أراه مقصودًا لتوضيح خلل الهوية، فهو منزل صالح لأي مكان، لا يحمل أية سمات خاصة _ من الخارج أو الداخل _ تُوحي بهوية قاطنيه. تقول هدى: " كان بيتنا وما يزال حتى الآن عبارة عن منزل صغير من طابقين، يقع في مدينة تشرف على ضواحي كوبنهاغن، فيه حديقة أمامية صغيرة يزرع فيها أبي أزهارًا لا أفهم مغزاها، تلك التي تزهر شهرين في السنة وتذبل قبل حلول الخريف، ثم تُطمر تمامًا في الشتاء... في ذلك الحين كنا

أنا وأخواي نحتل الطابق العلوي بغرفه الثلاث، وتركنا لوالدي الغرفة الرابعة في الطابق الأرضي" (النداوي،٢٠١٠م: ٦٣، ٦٤). هذا البيت من الخارج بلا هوية مثل كل البيوت المجاورة،" بيوت كلها من الطراز والشكل نفسه، متراصة بطريقة منظمة حتى لكأنَّها من شدة النظام تبدو أبعد عن حقيقة مفعمة بروح، وأقرب إلى خيال ممل لا روح فيه... أمام تلك البيوت المتشابهة ممرات صغيرة أُريد لها أن تكون شوارع ينتقل عبرها سكان المنطقة ليخرجوا منها إلى الشوارع الأكبر قليلًا من الشوارع التي تحيط ببيوتنا، ثم منها إلى الشارع الرئيسي... خلف بيوتنا فسحة كبيرة خضراء تقع في أحد جوانبها ملاعب صغيرة " (النداوي،٢٠١٠م: ٦٥)، ومن الداخل – حتى بعد تزينه بلوحات تحمل آيات قرآنية بعد تدين الأم –ظل بلا هوية؛ فلوحاته القرآنية (إشارة للهوية الدينية) علقت في أماكن غير مرئية، وقرب السقف، وابتعادها هذا عن مرمى النظر علامة دالة على فقدانها لقوة التأثير، ومن ثم فقدناه القدرة على تحديد هوية.

يؤدِّي المكان الخالي من أية ملامح ترتبط بثقافة وتاريخ وحضارة قاطنيه دورًا في ضعف الإحساس بالأنا، ويرسِّخ لنمو ذات هشة يمكن استقطابها بسهولة. فالمتابع لأسرة هدى يرى عمادًا، شقيقها الأكبر، الذي التحق بوالديه في الدنمارك بعد قرابة العشرين عامًا من هجرتهم، يعيش مع امرأة دنماركية عزباء في شقتها، بمعرفة أمه التي لم تعترض، ولم تتأخر يومًا عن القيام بغسل ملابس المرأة وتنظيف شقتها، وأختها نخيل كانت على عكس النخيل بلا جذور تربطها بوطنها العراق، تسخر من اتجاه بوصلة أمها نحو الشرق، والأب والأم حائران بين أكون أو لا أكون، وكأن المكان سياج يحمي الهوية من الضياع.

ج) الحنين للماضي واجترار الذات:

يتمظهر عشق الشخصية المهاجرة للماضي في الحرص على العادات والتقاليد، واجترار حكايات الماضي الباعثة في النفس طمأنينة – ولو كاذبة – عن وطن يمكن العودة إليه متى لفظها الوطن الجديد. وهي حكايات تصنع عالمًا افتراضيًا تعيش فيه الشخصية هويتها.

محمد والد هدى مغرم بمنمنمات الحياة في بغداد، وهو غرام يبثُّ في نفسه الأمل، ويجعله يتمسك بتلابيب الحياة. تقول عنه هدى: " أبي المتقاعد، قبل أوان تقاعده بسنين، كانت له مقدرة عجيبة على تذكر كل شبر في كلية الهندسة التابعة لجامعة بغداد، التي درس فيها في ستينيات القرن المنصرم، وحيث قضى أربع سنوات من شبابه ليحصل بعدها على شهادة لم تفده في شيء " (النداوي،٢٠١٠م: ٦٣).

هذا العجوز قبل الأوان كان يسرد حكاياته عن بغداد " بطريقة لا يحاول فيها أن يلعب دور الراوي، بل ذلك المجنون الذي يكلم نفسه. كان يبدأ بسرد

قصة تدور أحداثها دائمًا في بغداد، كأن الأحداث لا تتخذ شكلًا قصصيًا بالنسبة إليه إلا هناك. وأما زمان هذه الأحداث فغالبًا ما يكون في الستينيات أو السبعينيات، أو زمن الخير كما يفضل أبناء العراق تسميته " (النداوي،٢٠١٠م: ٦٣).

الحكي بالنسبة لهذا العجوز الرافض لعب دور الراوي – لما سيفرضه عليه ذلك من قيود، منها الكذب من أجل جذب انتباه السامعين – كان لصناعة عالم افتراضي يستطيع العيش فيه بهويته الأصلية، لم يحك للآخرين، فقد كان يحكي وهو غير عابئ بسامعيه، كان يحكي " وهو شبه مستلق على الأريكة في الصالة، عيناه معلقتان على التلفاز، مثل: متابع جيد، وصوت التلفاز يعلو صوته كأنما يحاول إسكاته دون جدوى... لا يستسلم بسهولة أمام ذكرياته، ويستمر حتى وهو يعلم أن لا أحد يستمع إليه" (النداوي،٢٠١٠م: ٦٣)، يحكي؛ ليصنع من مفردات حكيه فضاءً يتماس مع فضاء الطفولة والشباب، يعيش فيه بوعيه تاركًا الجسد للمهجر يأكله.

ورافد –أيضًا– تخلق له ذكرياته عن الوطن عالمًا افتراضيًا يعيش فيه هويته، ويقاوم به الغربة والاغتراب، وهو لا يكتفي باجترار ذكريات الماضي عن دجلة والفرات/ الوجود، ورحلاته مع الجد/ الأصل لصناعة سياج يحمي هويته المعرضة للاندثار، بل يسعى إلى صناعة ذكريات، مفرداتها الوطن، والعادات، والتقاليد، والتاريخ، والأصحاب، يقول: "لكي أشفى من إحباطي، وأقبل على حياتي الجديدة بصدر منشرح، كان عليّ أن أصنع لنفسي ذكريات جديدة، أحشرها عنوة في رأسي (النداوي،٢٠١٠م: ٢٨٣).

ويستدعي بغداد بأهلها، وشوارعها، ونهريها، وتاريخها، ومقاهيها. يقول: " لصوت جدي وهو ينهرني طعم الندى، ونحن نشق دجلة:

ـ رافد... اقعد عِدل!

ولإشاراته ما يشبه النقش على الحجر، وهو يشير إلى منارة عالية من بعيد. تلك ساعة القشلة... ذلك شارع المتنبي... ذلك هو المدخل إليه. ثم نواصل، فأرى رجالاً يجلسون مطلين من شرفة تبدو قديمة، فيشير جدي بيده، هذا مقهى البيروتي، ثم نهبط أنا وجدي قرب المقهى، بينما أَعْين الرجـــال تطالعنا بفضول لا يستحقـــه رجل عجوز وطفل في السادسة"(النداوي،٢٠١٠م: ٢٨٣).

لا تختلف الأنا الغربية في سرد المهجر عن الأنا العربية؛ فهي حريصة على تضخيم الذات بعنصريتها الرافضة الآخر، خوفًا على هويتها. نلمس هذا الرفض في محاولات إقصاء هدى، هذه المحاولات التي بدأت مبكرة جدًا، في سني طفولتها الأولى. فقد أقصاها (كلاوس) بهجة طفولتها المبكرة عن عالمه، برفضه مشاركتها اللعب، وقوله: "جدتي تقول: عندما تكبر،

لا تتزوج من السوداوات"(النداوي،٢٠١٠م: ٢٧)، وهو رفض يبدو وراثيًا نابعًا من ثقافة مجتمع رافض لغير الدنماركيين، ونفس الرفض الطفولي تكرر من (نيكولاس) الأخ الأصغر (لكلاوس)، الذي ما فتئ يسخر من حجاب هدى كلما رآها " لماذا ترتدين هذه الخرقة على رأسك؟ ألآن الجو بارد؟ أم لأنك تعتقدين أنك تعيشين في صحراء؟ (النداوي،٢٠١٠م: ١٠٨)، وفي سني المراهقة بعد ارتدائها الحجاب الذي ميزها في بيئة لا تحبذ التميز، رُفضت رفضًا ساخرًا من زملائها. تقول: "كانوا يديرون أعينهم الملونة في حيرة مفتعلة، متعمدة، كي يبرهنوا على اختلافي، ثم يطرحون أسئلة تافهة، أكاد أجزم أنهم كانوا يعلمون إجابتها" (النداوي،٢٠١٠م: ٩٨)، وعانت من رفض السكارى الدنماركيين، ذلك الرفض الذي حتم عليها أن تتسلح كل صباح، وقبل الخروج من منزلها، بعبارات هجومية تقاوم بها مطالبتها بالرحيل.

وهو رفض أجبرها على التسليم بغربتها، والاعتراف بأنَّ لها هوية غير هوية الدنماركيين، لكن البوح بها مرفوض " هذه الأرض إرث الـ"فايكنغ" أهلها الأصليون هم من يملكون شمسها، وهواءها، وسحر طبيعتها.. فإن هم رضوا لنا مشاركتهم في إرث جدودهم أصحاب الانتصارات الخاطفة فليس لنا إلا أن نشكر لهم ذلك ونعيش بسلام" (النداوي، ٢٠١٠م: ٥١)، وحدد لها مفهوم الوطنية، " الوطنية هنا هي أن تعرف أكثر القليل عن وطنك، وأن تلوك مفاهيمه الأصلية على قدر استطاعتك، وأن تمضغ لغته بين فكيك ثم تخزنها خلف لسانك مثل القات... وطنيتك هنا لا معنى لها، فأنت بعد كل ما أنت عليه من وطنية لست سوى أجنبي" (النداوي،٢٠١٠م: ١٣٨، ١٣٩).

٣ـ الهوية المنفتحة على الهو:

نقصد بها الهوية المتحولة أو الهوية المركبة المشكلة من انتماءات متعددة، التي ينفتح فيها الفرد على الآخر بلا حدود، يقبل ثقافته، ويحترم عاداته وتقاليده. وهي هوية برزخية بينية، تقف على حدود هويتين لا سيطرة لإحداهما على الأخرى، تجبر المهاجر على أن يعيش حياة مهجنة، ناتجها مسخ إنسان، لكنها وثيقة المرور التي لا بد منها للعيش داخل مجتمع المهجر. وهذه الهوية ترتبط _ غالباً _ بالجيل الثاني من أبناء المهجر الذين شبوا على ثقافة الآخر، ولغته، وعاداته، وتقاليده، لكن ذلك لا يمنع وجود أنصار لها من حديثي العهد بالهجرة / النفي.

تعدُّ هدى الصورة المثلى للهوية المتحولة؛ فهي مسخ لا تعرف، هل هي " عراقية من الدنمارك أو دنماركية من العراق"؟ (النداوي،٢٠١٠م: ٢٤)، فاقدة للإحساس بعروبتها، وغير متأكدة من انتمائها للدنمارك، تتحدث اللغة الدنماركية، وتشارك الدنماركيين مقاعد الدراسة، ووسائل المواصلات،

وأماكن الترفيه، ولا تعرف تاريخًا غير تاريخهم، ولا تعرف أرضًا غير أرضهم، ويُنظر لها على أنها أجنبية سوداء قادمة من الصحراء، الصحراء التي لم تعش فيها يومًا واحدًا.

تردد دائمًا بينها وبين نفسها أنها دنماركية، وتتصرف كالدنماركيين، ولا تعترف بغربتها. تقول: "التحول من حال إلى حال ليست بفكرة جديدة على ***واقعنا الدنماركي***. إذ يشمل التحول الكثير من واقعنا ***نحن الدنماركيين***، الأصليين منا والحديثي العهد بالجنسية الدنماركية، نحن قوم في حالات تحول على مدى العام... متقلبون مع الجو المتقلب ذاته، الذي يحيط بنا... نبتسم ابتسامة واسعة ***في وجه الغريب***، ثم ما نلبث أن نضغط على أنوفنا بالإبهام والسبابة كي لا تزكمنا رائحة الغربة" (النداوي،٢٠١٠م: ٢٠١)، وتتحدث دائمًا بصيغة النحن الدنماركي "***نحن أسرع*** قوم يتحول من دين إلى دين / ***كاتبنا*** الأشهر/ ***نحن*** السكندنافيين/***نحن*** الدنماركيين" (النداوي، ٢٠١٠م: ٢٠١، ٢٠٢)، وفي الوقت ذاته تعتز بأصلها العربي. تقول عن احتفالية تخرجها في المدرسة الثانوية:

" على الرغم من أن التقليد السكندنافي ليس من أصل عاداتنا... تلقفناه بفرح غامر ومارسناه بحرفية عالية. ***نحن القادمون من تحت ظلال النخيل*** احتفينا وهللنا في اليوم الذي يعده بنو الثلوج التقليد الأهم في حياة أبنائهم المراهقين " (النداوي،٢٠١٠م: ٣٧٨)، وتعتز برحلتها مع أسرتها إلى دمشق، وتعدها نقلة نوعية في حياتها، وتجعل لها الدور الأكبر في اعتدال شخصيتها. تقول: " رحلتي تلك نقلتني من حياة إلى أخرى، وأرختُ طفولتي رتيبة الإيقاع بما قبل دمشق وما بعدها... لقد تأثرت تأثيرًا امتصته شخصيتي الطفلة بسهولة وسرعة، ولولاها ما كنت عرفت كيف يبدو أصلي خالصًا.. ولولاها كنت تركت أصلي لحياتي المهجنة، تلك المزدوجة التي أراها على محيا أقراني من المهاجرين الذين تربوا هنا، فتمايعت شخصياتهم في فوضى مرتبة " (النداوي،٢٠١٠م: ٣٤). هدى التي رأت في رحلة الشرق حياتها " كأن الشرق كله صار في صدري، فتستيقظ الموءودة في داخلي وتتململ" (النداوي،٢٠١٠م: ٣٥)، تركل أرضية وطنها من تحتها، وتجتث هذا الوطن من قلبها.

إنَّ شخصية هدى تجسيد لحالة العائش في منطقة البين بين، لا يعرف لنفسه هوية، لا هو غربي، ولا هو عربي، ويشاركها هذه الحالة كل من هي / هو مثلها. "من هم مثلي فإني متأكدة أنهم يسردون قصصهم من خلالي " (النداوي،٢٠١٠م: ٢٢)، وهو جيل مسكين تتكئ نفسه" على نصف عقلية أوربية، فيما يُترك للجانب العراقي فيها ما تبقى من عرج" (النداوي،٢٠١٠م: ٨٥).

كل شيء في حياة هدى انعكاس لهذه الهوية الممسوخة، فهي لا تعرف أيّ اللغتين تفضل، اللغة

الدنماركية أم/ اللغة العربية؟ تعيش حائرة بين كيانين لغويين لهما نفس قوة الوجود في نفسها.

عندما حدثها رضا بالعربية صرخت فيه:

ـ لماذا تتحدث العربية معي... إنها لا تليق بك.

ضحك باستهتار.. فرددت بفظاظة:

ـ شقد سخيف.

قال بنبرة معترضة:

ـ بأي لغة أحدثك إذن... أنت لا تفهمين الفارسية.

ـ الدنماركية تناسبني جداً.

ـ سبق وأن رفضتيها أيضًا. (النداوي،٢٠١٠م: ٢١٦).

وحائرة بين (رافد) العراقي الشاب المحاط " بالخشونة من كل جانب "(النداوي،٢٠١٠م: ٧٩)، الذي شُغفت به حبًا يوم رأته مع أصدقاء له في أحد مطاعم كوبنهاغن، و(توربن) الدنماركي العجوز شبيه "الشتاء الدنماركي" (النداوي،٢٠١٠م: ٣٦٨)، الذي تعرفت إليه عبر الإنترنت، ووطدت علاقتها به، حتى أصبح مستودع أسرارها، وملجأها كلما ضاقت عليها الحياة. فالاتجاه ناحية رافد اتجاه نحو الشرق بعاداته وتقاليده ولغته وثقافته ومدنه بروائحها النافذة، والاتجاه نحو توربن تمسك بالغرب، وإيمان بعاداته وتقاليده، واعتراف بثقافته وتاريخه. هذه الحيرة كانت السبب في تركها الاثنين راضية باللاهوية، ومستسلمة لحالة التقوقع على الذات، شأنها شأن كل شيء في الغربة. " كل شيء في غربتنا متقوقع على ذاته. حتى نفسي متقوقعة على نفسها، فاصلة ذاتي عنها، فلا تدري هذه بتلك" (النداوي،٢٠١٠م: ١٣٤).

ومثل هدى عماد الذي تركه أبواه في العراق خوفًا عليه من عقابيل طريق الهرب، فعاش مع جديه حتى بلغ العشرين من عمره، وبعد وفاتهما اضطر للرحيل إلى الدنمارك وراء أسرته التي لا يعرف حتى ملامح أفرادها. هذا العراقي المصقول بالعروبة والعادات والتقاليد العراقية، يستسلم لهوية الهو، ليعيش في حالة اللاتوازن/ اللاحقيقة. فبعد وقت قليل من العيش في الدنمارك، يشارك امرأة دنماركية مسكنها، وعندما يشرع في الزواج لا يفكر فيها ويخطب زينة الفتاة العرقية صديقة أخته. ومثلهما زينة، ونخيل.

لقد ركزت الرواية على أسباب هذا التحول، بطريقة فنية بعيدة عن التقريرية الوعظية، وجمعتها في:

١ـ فقدان الوازع الديني. تقول هدى عن موقف عائلتها من الدين: " إن الدين بالنسبة لنا شيء ثانوي، ويكاد يكون منسيًا، لم نكن نشهد مظاهره في بيتنا إلا فيما ندر، لم أر في حياتي أبي أو أخي يصليان. أما أمي فكانت فيما مضى تمارس بعض الشعائر الدينية كالصلاة والصوم، لكن مع نفسها، متعمدة عدم إظهارها أمامنا، كأنها تخجل منها" (النداوي،٢٠١٠م: ٥٦، ٥٧).

٢ـ الموقف السلبي من اللغة العربية. فلم تكن ذات أهمية في حياتها ولا في حياة أسرتها، " كان أبواي سعيدين بحقيقة كوني أتكلم الدنماركية بطلاقة والعربية بركاكة " (النداوي،٢٠١٠م: ٢٥)، هذا الموقف السلبي من اللغة جعلها-وهي في العشرين من عمرها- تراها "مثل أفاعي ملتوية ومربوطة بعضها ببعض " (النداوي،٢٠١٠م: ٤٥)، وتسخر من كتابتها من اليمين لليسار " كانت معرفة ذلك نكتة سخيفة أضحكتني إذ لم أكن أتوقع للغة أن تبدأ من الخلف" (النداوي،٢٠١٠م: ٤٥).

٣ـ الاغتراب وما يترتب عليه من إقصاء. فقد أقصاها المجتمع الدنماركي، ونظر لها على أنها أجنبية غير مرغوب فيها، ورفضها التجمع العراقي في الدنمارك، ممثلًا في أسرة أبي حسن، " إذا كنت أنتمي للدنمارك فلقد رفضتني مسبقًا، وإذا كنت أنتمي إلى العراق فها هو الآخر يلفظني بقوة أكبر، كلاهما لا يحبذني، فلست ذات أهمية قوية تبعث على الاستزادة مني" (النداوي،٢٠١٠م: ٧٥)، وكانت نتيجة هذا الرفض فقدان القدرة على العيش كأكثرية " لم أكن أدري ما يعنيه أن أعيش أكثرية بعد أن عشت جل حياتي أقلية "(النداوي،٢٠١٠م: ٩٠)، وارتخاء ركبتيها للمهجر.

٤ـ طبيعة الحياة في المهجر. وهي حياة تستلزم اجتثاث الوطن من القلب كي يعيش المرء بسلام " علمت أني كي أعيش بسلام كان لزامًا عليّ أن أجتث بلدي من قلبي" (النداوي،٢٠١٠م: ٩٩)، واجتثاث الوطن اجتثاث للهوية.

٥ـ الازدواج الثقافي المؤسس وعيًا ثقافيًا مغايرًا يجعل صاحبه ممزقًا بين الجذور والحاضر.

٤ـ آليات تجسيد (التيمة):

اعتمدت الرواية مجموعة من الآليات الفنية للخروج بالموضوع من حيز المعالجة الاجتماعية إلى حيز المعالجة الروائية، وبناء الشخصية القلقة، مثل: استغلال طاقات العتبات، وتقليص مساحة حضور الشخصيات، واكتناز الوصف، وتفريغ العلامات الدالة من إيحاءاتها، وتفعيل الثنائيات، وهي آليات بعضها يؤسس (لتيمة) الهوية، وبعضها يؤكد وجود التيمة.

٤ـ١ : العتبات:

تؤدِّي عتبات النص (صورة الغلاف، والعنوان، والإهداء، والعناوين الداخلية، والهوامش، والإشارات، ونوعية الخط، والمقدمة، والخاتمة، وكلمة الناشر،... إلخ) دورًا كبيرًا في مساعدة المتلقي ـ قارئًا ومؤولًا ـ على الولوج الصحيح في عالم العمل الأدبي، وتوجيه قراءته وتحديد مسارات خطوطها الكبرى، "لدرجة يمكن معها اعتبار كل قراءة للرواية بدونها بمثابة دراسة قيصرية اختزالية من شأنها إلحاق ضرر كبير بالنص، وتشويه أبعاده ومراميه" (بوطيب،

١٩٩٧م: ٦٤)، إضافة إلى دورها في تحديد هوية النص، والإشارة إلى مضمونه. وهي إشارات جزئية يتم توظيفها داخل النص بغض النظر عن سياقاتها الأصلية.

سوف تكتفي الدراسة في بحثها عن العلاقة بين العتبات والهوية بالوقوف أمام الصورة القابعة على وحدة الغلاف الأمامية، والعنوان، والإهداء، والمقدمة، ومحتويات وحدة الغلاف الخلفية؛ لأنها _ الصورة، والعنوان_ خالقتان لحالة من عدم التوازن المناسبة للهوية المنفتحة على الهو، والإهداء، والمقدمة مناسبان لحالة الثبات المرتبطة بالهوية المنفتحة على الأنا.

أ) صورة الغلاف:

تحمل الوحدة الأمامية لغلاف مدونة الدراسة، صورة لفتاة في مرحلة ما بعد القفز نحو السماء، حافية القدمين، تصيح، رأسها متجه نحو السماء، ذراعها الأيسر _ المغطى بجزء من وشاح ثوبها _ مفرودًا بمحاذاة الجسد، كأنه جناح، في حين يختفي تمامًا ذراعها الأيمن، عينها اليسرى مفتوحة تنظر للسماء، وتختفي عينها اليمنى تمامًا. ترتدي ثوبًا أبيض بسيطًا، ينحسر عن جزء كبير من الصدر والكتفين، وجل الساق اليمنى، وعن جزء صغير من ساقها اليسرى، ويطير خلفها في اتجاه معاكس لحركة الرياح وشاحٌ أبيض، هو جزء أساسي من أجزاء الثوب. فوقها سماء ملبدة بغيوم رمادية أقرب للسواد، يتدرج لونها القاتم حتى يبدو على مرمى البصر قريبًا من الأبيض، وتحتها رمال شاطئ تخلت عن اللون الأصفر إلى اللون البني، وانعكس لونها على بياض الثوب، فبدا مشوبًا بحمرة خفيفة، ومياه بحر تأخذ درجة من درجات الأسود. أعلى الصورة عنوان الرواية بلون بنفسجي، وبخط فيه الكثير من الخروج على قواعد الخطوط العربية، وتحته، بجوار رأس فتاة الصورة اسم الكاتبة، وبمحاذاة قدمها اليسرى، كلمة رواية.

تحمل الصورة الكثير من الثنائيات، مثل ثنائية القدرة على الفعل وعدم القدرة، وثنائية الرؤية البصرية والعمى، وثنائية الطهر والدنس، وثنائية السماء والأرض، وهي مجموعة ثنائيات تؤسس _ مجتمعة _ لحالة من عدم التوازن، الذي يتماشى مع مضمون الرواية. فالفتاة حافية القدمين القابعة داخل الصورة، المحلقة نحو السماء بلا قدرة على الابتعاد عن الأرض، تحلق بجناح (ذراع) واحد، وثوبها يكشف من جسدها مثلما يخفي، وتظهر عينها اليسرى، وتختفي عينها اليمنى، وتتعرى ساقها اليمنى، وتستر ساقها اليسرى.

بالتأمل في الخفي والظاهر (الثنائيات) من جسد الفتاة، نرى الجسد مجموعة أيقونات دالة على الاضطراب وعدم التوازن، ففي اختفاء العين اليمنى إشارة إلى مقدرتها على رؤية نصف الحقيقة، وفي اختفاء ذراعها الأيمن إشارة إلى القدرة على نصف الفعل، وفي القدمين الحافين إشارة إلى صعوبة الثبات، وفي الجزء

المستتر والجزء العاري من جسدها إشارة إلى المراوحة بين الطهر والدنس. وهي صورة لخصها رافد، الشخصية الرئيسة في الرواية، في أثناء حديثه عن فتيات المهجر بقوله: "تتكئ الواحدة منهن على نصف عقلية أوربية، فيما يترك للجانب العراقي فيها ما تبقى من عرج عقليتها" (النداوي، ٢٠١٠م: ٨٥).

وتؤدِّي مجموعة الألوان المشكلة ملامح الصورة دورًا في تعميق هذا الاضطراب، فيغلب على الصورة اللون الرمادي القريب من السواد في بعض الأماكن، وهو لون يقسم عالم الإنسان إلى قسمين" (عمر، ١٩٩٧م: ١٨٩)، قسم إيجابي وقسم سلبي، يتجاذبان النفس، فتعيش مجبرة في منطقة البين بين، ويتحول فيها لون الرمال الأصفر إلي لون بني " يُوحي بالأهمية الموضوعة على الجذور " (عمر،١٩٩٧م: ١٩٥)، وحصار فتاة الصورة بين البني (عالم) أسفلها، والرمادي (عالم مضاد) أعلاها إشارة إلى احتمالية تمزقها بفعل الجذب لأعلى، والسحب لأسفل. ويمتزج فيها اللون الأبيض رمز الطهارة والنقاء والصدق، بحمرة تمنع عنه الكثير من رمزيته. ويؤدِّي فيها اللون البنفسجي، الذي يشغل مساحة محدودة في صورة الغلاف – العنوان، اسم الكاتبة، التجنيس – دورًا كبيرًا في تأكيد حالة الانقسام المسيطرة على فتاة الصورة؛ فهو لون "يوحي بأن صاحبه شخص غير مستقر الانفعالات، أو شخص يريد أن يُعترف به كإنسان جذاب محبوب، كما يُوحي بأنَّ الرغبة في الانسجام مع شخص آخر قد رفضت أو علقت " (عمر، ١٩٩٧م: ١٩٤)، وهي سمات شخصية هدى كما قدمتها الرواية. والجمع بين هذا اللون ونوع الخط الثائر على قواعد الخط العربي يعمق الإحساس بعدم التوازن.

إن قراءة صورة الغلاف من خلال مكوناتها وألوانها، تنتج صورة لمسخ حائر بين الكمال والنقصان، مضطرب غير قادر على الثبات على الأرض، وفاشل في تمام التحليق نحو السماء. وتجعل الدخول لعالم الرواية من بوابة اضطراب الهوية وعدم التوازن، لكنه تحديد مبدئي، صلاحيته مرتبطة بمعطيات العنوان، والإهداء، والتصدير، والغلاف الخلفي.

ب) العنوان:

الناظر في العنوان " تحت سماء كوبنهاغن"، تركيبًا لغويًا، يراه ناقصًا؛ فهو مسند يحتاج إلى مسند إليه. وهو نقص يستدعي بالضرورة فتاة الصورة الناقصة، ويحدد للمتلقي بوابة جديدة يلج منها إلى عالم النص، هي **بوابة النقصان**. وهي بوابة تحفيزية تفرض على القارئ التسلح بأدوات تمكنه من استكمال النقص حتى يستقيم له النص. ونقصان العنوان كامن _ أيضًا _ في عدم قدرته على ترجيح كفة المسند إليه المناسب دون الرجوع لصورة الغلاف، المرجحة (أنا)، فيكون العنوان (أنا تحت سماء كوبنهاغن)، أو (فتاة) ليكون

العنوان (فتاة تحت سماء كوبنهاغن). وهما لفظتان تجعلان للأنا وجودًا في العنوان. وتأتي لفظة (كوبنهاغن) في العنوان لتؤكد حضور الغربة، وحضور الآخر / الهو- اسم الكاتبة حوراء النداوي تحت العنوان يجبرنا على عد كوبنهاغن آخر - الهو بثقافته، وحضارته، وعقيدته، وهويته. وهو حضور قويّ، قوته من قوة لفظة (كوبنهاغن) الواردة مضافًا إليه في تركيبة العنوان، فكما أنَّه من المستحيل حذف المضاف إليه حتى لا يختل المعنى، من المستحيل - أيضاً- عدم قراءة العنوان بدون (كوبنهاغن) / الآخر. وهي لفظة مع المسند إليه المقترح تحدد مدخلين للغوص في عالم الرواية، أولهما **مدخل الغربة**، وما يترتب عليه من اغتراب، ومشكلات ترتبط بالهوية، والثاني **مدخل الأنا والآخر**. واللفظتان معًا - أنا / الفتاة، كوبنهاغن - تؤسسان لصراع بين الأنا والآخر، بداية من واجهة النص. وهو صراع يُوحي من التركيب النحوي بأنَّ الغلبة فيه للآخر، فموقع (الأنا/ الفتاة) في التركيب مبتدأ جائز الحذف، وموقع (كوبنهاغن) مضاف إليه لا يجوز حذفه. وهو نظم جعل للمضاف إليه/ الآخر سطوة على المبتدأ / الأنا، الفتاة. وقد أكَّد المتن هذه السطوة بجعله هدى خاضعة بإرادتها لسطوة كوبنهاغن.

يحدد الغلاف بمكوناته _ العنوان، الصورة _ أربعة مداخل يمكن من خلالها الولوج لعالم النص، هي: الاضطراب وعدم التوازن، والنقصان، والغربة، وصراع الأنا والآخر، وهي مداخل ليست بعيدة عن (تيمة) النص، فالعلاقة بين الهوية وعدم التوازن، والنقصان، والغربة، وصراعات الأنا والآخر، علاقة وطيدة، فمشكلات الهوية يشتعل أوارها في حضرتها، ووجودها لا خلاف عليه إذا ما حلَّ ذكر الهوية.

ج) الوحدة الخلفية للغلاف:

لا تقلُّ قيمة الغلاف الخلفي عن قيمة الغلاف الأمامي؛ فهو امتداد له، ولمحتوياته عدة وظائف: أولها الاكتفاء بتأكيد المعنى الكامن في واجهة النصّ، والثانية استكمال المعنى المراد من هذه الواجهة، والثالثة إحداث اضطراب يُولِّد معنًى مخالفًا للكامن في الغلاف الأمامي، لغرض فني يريده منتج النص.

يحمل الغلاف الخلفي لمدونة الدراسة كلمة الناشر وتعريف بالكاتبة فوق خلفية بنفسجية. يرى الناشر الرواية "رواية تحكي تجربة حب بين المراهقة التي ولدت في كوبنهاغن لأبوين عراقيين، والرجل الناضج الذي دفعته ظروف العراق إلى الهجرة للدنمارك ". وهي رؤية تميل بالرواية ناحية الروايات الرومانسية، وقد تحتم أن يكون العنوان المناسب للرواية الحب/ العشق تحت سماء كوبنهاغن، لكن مكونات الغلاف، ووضعية صورة الفتاة عليه، ومجموعة الألوان المشكلة الصورة، تأبى التوافق مع هذه الرؤية الصادمة المتلقي، بما تحمله من تأويل مخالف لمجموعة المعطيات الكامنة

في واجهة النص، تلك المعطيات التي حددت له مسار دخوله إلى العمل. وهي كلمة أرى تناقضها مع واجهة النص تناقضًا مقصودًا لخلق **حالة من عدم التوازن التأويلي** لدى المتلقي، تتوافق مع حالة الاضطراب الظاهرة في قراءة الغلاف الأمامي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تتوافق مع حالة عدم التوازن المسيطرة على شخصيات المتن، خصوصًا هدى صاحبة الهوية المتشظية.

ويأتي التعريف بالكاتبة، التالي لكلمة الناشر مباشرة، دون أية فواصل من الفواصل المتعارف عليها، مثل: الكاتبة في سطور، أو التعريف بالكاتبة، "حوراء النداوي كاتبة عراقية. غادرت العراق مع الأسرة في سن السادسة لأسباب سياسية. نشأت في الدنمارك وتعلمت اللغة العربية في المنزل. تسكن حاليًا في لندن " متعارضًا مع كلمة الناشر ومتوافقًا في جزء كبير منه مع القراءة التأويلية للغلاف الأمامي. فهو تعريف مقتضب جدًا تكمن فيه إشارات إلى احتمالية صراع بين ثلاث ثقافات (العربية، الدنماركية، والإنجليزية)، وبين ثلاث لغات: اثنتان مكتسبتان بالتعلم (العربية والإنجليزية)، وواحدة مكتسبة بالنشأة، وفيه إشارة إلى علاقة متوترة مع الجذور/ العراق، الذي غادرته الكاتبة مع أسرتها مكرهة بسبب الظروف السياسية. ومعطيات هذا التعريف بجوار المداخل الأربعة التي حددها الغلاف الأمامي، يجعل المهجر والصراع بين الشرق والغرب، وما يترتب على هذا الصراع من فقدان للذات، والحيرة بين الحقيقة واللاحقيقة، والوجود واللاوجود المدخل الصحيح إلى عالم الرواية.

إنَّ الاضطراب والتأرجح في منطقة (البين بين) الكامنان في العنوان وصورة الغلاف بألوانها المعبرة الدالة، يشيران إلى أحد نمطي الهوية في سرد المهجر، وهي الهوية المنفتحة على الهو. وهي إشارة لا يستطيع المتلقي الوقوف عليها إلا بعد الولوج في عالم النص.

د) الإهداء:

إلى أمي...

المرأة التي حين التحقت بالصف الأول الابتدائي في بغداد،

لم تكن قد نطقت بالعربية بعد

هي نفسها المرأة التي عشقت تلك اللغة، وجاهدت تعليمي إياها فكانت مدرستي الوحيدة...

أمي أخيرًا أهدي إليك ما لن يعادل طلقة.

وإليه... أبي...

بطلي الأوحد واستقامة ظهري.

الإهداء عتبة نصية لا تخلو من قصديّة، " تحمل داخلها إشارة ذات دلالة توضيحية " (حماد، ١٩٩٧م: ٦٤). وهي عتبة ضاربة بجذور في أعماق التاريخ، يرجعها (جيرار جينت) إلى زمن الإمبراطورية الرومانية القديمة. وأهم ما " يفرق بين الإهداءات

القديمة عما نعرفه الآن، هو أن الإهداءات في السابق كانت تتموضع في النص ذاته أو بدقة أكبر في ديباجة النص/ الكتاب، أما الآن؛ فهي تسجل حضورها الرسمي والشكلي في النص المحيط (المناص عامة)" (بلعابد،٢٠٠٨م: ٩٤)، ويعني هذا أنَّ للإهداءات وظائف تداولية وتأويلية وتفسيرية، غير الوظيفة الإخوانية المرتبطة بالتقدير والعرفان. وقد اعتمد على طاقتها التعبيرية الكثير من الكتاب، ومنهم صاحبة مدونة الدراسة التي جعلت من إهدائها أيقونًا كبيرًا يحتاج إلى وقفات لقراءة إشاراته، ووسيلة لتحديد بوابة الدخول لعالم النص. فهو إهداء إلى الأم / الوجود، والأب/ الأصل، ويتضح من لفظاته أن سبب إهداء العمل للأم ليس المحبة، والوفاء فقط، بل لدورها الفعّال في إتقان الكاتبة اللغة العربية، واللغة بتعبير (هيدجر)، "بيت الوجود" (ناظم،٢٠١٢م)، وعلاقتها بالهوية علاقة وثيقة؛ فهي أهم علاماتها. وحضور الأب بجوار الأم في الإهداء، والإشارة إليه (باستقامة ظهري) حضور يأخذ المتلقي، قارئ الغلاف، إلى منطقة من منطقتين: منطقة الغربة والاغتراب، ومنطقة الهوية، وهما منطقتان لا يمكن الفصل بينهما بفاصل.

هـ) التصدير:

نحن أدرى وقد سئلنا بنجد
أطويل طريقنا أم يطـول
وكثير من السؤال اشتياق
وكثير من رده تعلـــيل
الشاعر العراقي العظيـم
أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي

يعرف (جيرار جينت) التصدير بأنَّه "اقتباس يتموضع عامة على رأس الكتاب أو في جزء منه" (بلعابد،٢٠٠٨م: ١٠٧)، وهو – في الغالب – حكمة نثرية أو شعرية، أو مثل، أو قول مأثور، أو جملة لكاتب مشهور، يأتي بها الكاتب ليس فقط لما تقوله، لكن – أيضًا – من أجل قائلها.

يأتي التصدير – عادة – لتفسير العنوان، أو موضحًا لطريقة " تسنن بها القراءة الواقعة في قلب الحوار الناشئ بين النص والحكمة التي رجع إليها الكاتب، كما يمكن للتصدير أن يكون أيقـونًا كالتصـدير بالرسم والنقوش والصور" (بلعابد، ٢٠٠٨م: ١٠٧)، له دلالاته السيميائية الموسعة معناه، والرابطة بينه وبين المتن، والغلاف.

وبالتأمل في التصدير الشعري التي صدرت بها الكاتبة روايتها، يظهر جليًّا تحديده للمدخل الذي يجب الدخول لعالم النص من خلاله، وتفسيره للعنوان. فبيتا المتنبي المحتويان على سفر، وشوق، وسؤال، وطلب أنس، وحيرة، وقلق، يفرضان على المتلقي الولوج لعالم النص من بوابة الغربة والاغتراب، وهما مع الهوية يشكلان ثالوثًا لا يمكن الفصل بين

مكوناته، كما أنهما يستدعيان وضعية صورة فتاة الغلاف، والعنوان المحتاج إلى مسند إليه لاستكماله، ويطرحان سؤالين ضروريين عن العلاقة بين مضمونهما وبين فتاة الغلاف المعلقة بين السماء والأرض، وعن قدرتهما على استدعاء نفس المسند إليه الذي استدعته الصورة لاستكمال العنوان. ولأنَّ البيتين يمكن عنونتهما بالاغتراب، أو اغتراب المتنبي، فالعنوان يمكن استكماله بلفظة الاغتراب، ويكون "اغترابي تحت سماء كوبنهاغن"، أو " اغتراب فتاة تحت سماء كوبنهاغن" أو أية صيغة يدخل هذا المضمون الاغترابي تحت عباءتها.

لا بدَّ أن نشير هنا إلى استحالة غض الطرف عن هذا التصدير الشعري، ليس لأنَّه عتبة لا مفر من المرور عليها، وليس لأنَّه إشارة تحدد طريقة الولوج في النص، بل -أيضاً - لأنَّ قائله الشاعر العربي الكبير أبو الطيب المتنبي، الأكثر إثارة للجدل حول الأنا والآخر، والأكثر حلًا وترحالًا ومعاناة من الغربة والاغتراب. وهما معنيان لمستهما الدراسة في الغلاف والإهداء والتصدير.

الملاحظ على العتبتين - الإهداء والتصدير - ارتباطهما بالهوية المنفتحة على الأنا الكامنة في الجذور (الأب والأم)، وفي التاريخ والتراث (المتنبي وشعره)، وهما بجوار عتبة الغلاف المشكَّلة من العنوان والصورة المصاحبة بألوانها ووضعيتها، المرتبطان بالهوية المنفتحة على الهو، يشكلان عالمًا افتراضيًا تتجلى فيه الهوية بوضوح بسبب صراع الأنا والهو الذي لا مندوحة عن اشتعاله.

٤-٢ - مساحة حضور الشخصيات:

جسدت الرواية انعزال الشخصيات فنيًّا بتقليص مساحة حضور الشخصيات المنعزلة على سطح السرد، فمساحة حضور أسرة أبي حسن في الرواية محدودة للغاية (*)، فالأسرة المكونة من الأب والأم وأربع بنات وولدين، لا وجود فعلي لثلاثة من البنات، ولا وجود حقيقي لولد من الولدين. والأمر نفسه يتجلى مع شخصية محمد والد هدى، المفضِّل العيش على هامش الحياة، فتواجده على سطح السرد محدود للغاية، مع أنَّه شخصية فاعلة في عمق السرد؛ فهو أحد أسباب تشظي هوية هدى.

٤-٣ - اكتناز الوصف:

بجوار مساحة الحضور أدَّى اكتناز وصف الشخصيات دورًا في تجسيد هذا الانعزال داخل المحكي، فأبو حسن أصلع، وأم حسن صوتها خبيث، وفاطمة باهتة باردة غبية، وبقية الشخصيات لا وصف لها، باستثناء رضا، أو يَرى المتلقي أوصافها في شخصية أخرى، مثل شخصية الأب محمد، الذي لم تهتم الرواية

(*) تواجدت فقط في الفصلين الرابع والسادس، باستثناء رضا الذي ظهر في الفصول: الثاني عشر، والسادس عشر، والثامن عشر.

بوصفه، واكتفت بعد وصف ابنه عماد بأن تقول: إنه صورة طبق الأصل من أبيه في مرحلة شبابه، وهو تكنيك تهميشي يؤكد اختفاء الشخصية خلف انعزاليتها. ولكي تَبْرُز فاعلية تقليص مساحة الحضور، وقلة الوصف بوضوح؛ لجأت الرواية إلى ***تفريغ العلامات الدالة من جل إيحاءاتها***، فلم تستطع تعويض النقصان الناجم عن قلة الوصف، ولم تقدر على زيادة مساحة حضور الشخصيات في وعي القارئ؛ فكلها _ العلامات _ تدلُّ على تدين أسرة أبي حسن، وضعف شخصية محمد والد هدى، وهذا التفريغ بجوار قلة الوصف ومحدودية مساحة الحضور، يجسد كيانًا مشوهًا غير مكتمل الملامح، ويؤسس لانعزال الشخصية _ على الأقل فنيًّا _ داخل السرد.

٤ـ٤ تفعيل الثنائيات:

نجحت الرواية فنيًّا في تجسيد هوية البين بين، بتركيزها على الثنائيات في حياة هدى، تلك الثنائيات المتصارعة المحدثة اضطرابًا داخليًّا يخلخل ثبات الشخصية. فبدت حائرة بين اللغة العربية واللغة الدنماركية، وسمح المحكي بمساحة كبيرة للمقارنة بين اللغتين، وهي مقارنة _ في رأيي _ مقصودة لذاتها، مهمتها إبراز الحيرة داخل نفس هدى، وبدت حائرة بين الشرق والغرب، تعشق الشرق بروائح مدنه النفاذة، وعاداته وتقاليده، وتعدُّ زيارتها لدمشق منقذ شخصيتها من التميع المعروف في وجوه أبناء المهاجرين، وفي الوقت نفسه تتمسك بدنماركيتها المكتسبة، وتفتخر بأنها دنماركية، وبدت حائرة بين الأنوثة والطفولة، فهي الناضجة نضوجًا عقليًّا متميزًا أهلها لكتابة رواية عن حياة العراقيين في المهجر، تفتقد نضوج الجسد الأنثوي، لتعيش " بجسد يبدو وكأنَّه ينمو نموًا عكسيًّا، فيتضاءل أكثر، ويتمسك بمعالمه الطفولية، رافضًا الانتقال إلى دنيا صارت تشتهي فيه ما يدل على أنوثة ما " (النداوي،٢٠١٠م: ٢٧٣)، وبدت حائرة بين اسمها ونسبها، وحائرة بين التكوين والثقافة، وحائرة بين الأقلية والأكثرية، وحائرة بين قبولها ورفضها من الآخر.

لقد جعلت هذه الثنائيات من هدى قطبًا سالبًا بين قطبين موجبين، جذباها بشدة، فانشطرت ذاتها بين عالمين متنازعين يصعب التوفيق بينهما.

الخاتمـــــة

بعد هذا العرض الذي توصلت فيه الدراسة إلى أنَّ الهوية في سرد المهجر المكتوب بالعربية هويتان: الأولى الهوية المنفتحة على الأنا، والثانية: الهوية المنفتحة على الأنا والهو، ووقفت على آليات تجسيدهما داخل المحكي. تخلص الدراسة إلى النتائج الآتية:

أولاً: من أهم وظائف الأدب المحافظة على هوية الأمة والملامح الكبرى المشكلة وجودها وكيان

أفرادها، حتى تستطيع الصمود أمام تيارات التهميش، واجتثاث الهوية المتجددة باستمرار، وهي وظيفة ارتبطت بالأدب (شعرًا ونثرًا) كما ارتبطت بغيره من إبداعات الإنسان الحقيقية، ولعلَّ مردّ ذلك إلى طبيعة النظم الأدبي، وقوة تأثير صياغته، بما تحمل من عناصر إيقاعية وجمالية ونفسية، قادرة على استلاب روح الإنسان من واقعها المادي والتحليق بها في عوالم تخيلية يسهل فيها توجيهها وإعادة تشكيلها.

ثانياً: الهوية في سرد المهجر نوعان: أولهما الهوية المنفتحة على الأنا، وهي هوية قائمة على انتماء واحد، انعزالية لا ترى في الآخر غير الاختلاف معه، والثانية الهوية المنفتحة على الهو، وهي هوية متحولة، مركبة من مجموعة انتماءات، ينفتح أصحابها على الآخر بلا حدود.

ثالثًا: الهوية المنفتحة على الأنا، هوية الأقرب عهداً بالوطن، والهوية المنفتحة على الهو – غالبًا – هوية الجيل الثاني، وما يليه من أجيال المهجر. ويميز أصحاب الهوية المنفتحة على الأنا الميل للعزلة، والعيش في عالم افتراضي مفرداته حكايات الماضي، والحرص على تشكيل المكان بما يتوافق مع الهوية الأصلية، ويميز أصحاب الهواية المنفتحة على الهو التحدث بضمير النحن الغربي، واضطراب أنفسهم بالصراع بين الشرقي والغربي.

رابعاً: الانفتاح على الأنا في المهجر/ المنفي ليس -بالضرورة – نتيجة إيمان بالأنا وعاداتها وتقاليدها وتاريخها وثقافتها؛ فقد يكون نفسيًّا لرغبة في خلق عالم افتراضي تعيش فيه الشخصية لتنسى الواقع الجديد، لكنه في النهاية وسيلة -قد تكون غير مقصودة -تحافظ على الهوية الأم. وهو انفتاح يتساوى فيه العربي والغربي، مع اختلاف في الأداة، فعلى حين يتقوقع العربي على ذاته، يتفنن الغربي في إبراز ذاته. والانفتاح على الهو، كما يعود إلى سيطرة ثقافة الآخر وضعف ثقافة الأنا، يعود – أيضًا – إلى الرغبة في العيش الآمن.

خامساً: اعتمدت الرواية في معالجتها لقضية الهوية على مجموعة من الآليات الفنية للخروج بالموضوع من حيز المعالجة الاجتماعية إلى حيز المعالجة الروائية، مثل: استغلال طاقات العتبات، وتقليص مساحة حضور الشخصيات، واكتناز الوصف، وتفريغ العلامات الدالة من إيحاءاتها، وتفعيل الثنائيات، وهي آليات بعضها يؤسس لتيمة الهوية، وبعضها يؤكد وجود التيمة.

سادساً: سمات نص الهوية في سرد المهجر المكتوب بالعربية يمكن جمعها في: اكتناز الوصف، وتقليص مساحة حضور الشخصية داخل المحكي، والحرص على الثنائيات المتضادة في جزء منها، وتفريغ العلامات من جل إيحاءاتها الدالة.

المصادر والمراجع

أرسطو، ما وراء الطبيعة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م.

بلعابد، عبد الحق، *عتبات جيرار جينت من النص إلى المناص*، لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠٠٨م

ابن نعمان، أحمد، *الهوية الوطنية، الحقائق والمغالطات*، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع: الجزائر، ١٩٩٥م.

بوزة، سعيدة، *الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب*، رسالة دكتوراة، الجزائر، جامعة الحاج لخضر- بانتة، ٢٠٠٧م

الجابري، محمد عابد وآخرون، *الموسوعة الفلسفية العربية*، المجلد الأول، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦م.

الجرجاني، الشريف، *التعريفات*، بيروت: دار عالم الكتب ، ط ١، ١٩٨٧م.

الجزار، محمد فكري، *العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي*، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٨م.

حماد، حسن محمد، *تداخل الأنواع في النصوص العربية*، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

حيدر، أحمد، *إعادة إنتاج الهوية*، دار مصر العربية للإعلام والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م

الشتوي، إبراهيم، *أبحاث في الهوية*.. دراسات في الرواية العربية، القاهرة: دار شرقيات، ٢٠١٠م.

صبرة، أحمد: *متعة السرد*، الإسكندرية: دار حورس، ط١، ٢٠١٢م

العلاق، علي جعفر، *الشعر والتلقي*، دراسات نقدية، عمان، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٧ م.

علوش، سعيد: *معجم المصطلحات الدبية المعاصرة*، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٥م.

عمر، أحمد مختار، *اللغة واللون*، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة: مصر، ط٢، ١٩٩٧م.

العوفي، نجيب، *مقاربة الواقع في القصة المغربية القصيرة*، المغرب: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧م.

الغزالي، محمد، *حقيقة القومية العربية*، القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٨م.

فرج، نورة، *ارتباكات الهوية: أسئلة الهوية والاستشراق في الرواية العربية الفرنكوفونية*، بيروت لبنان: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م

الفارابي، أبو نصر، *كتاب الحروف*، تحقيق محمد مهدي، دار الشرق: بيروت، لبنان، (بدون).

لوفيفر، هنري، *المنطق الجدلي*، ترجمة إبراهيم فتحي، القاهرة: دار الفكر العربي المعاصر، ط١، ١٩٧٨م.

المحادين، عبد الحميد، *جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية*، بيروت: لمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠١م.

النداوي، حوراء، *تحت سماء كوبنهاغن*، بيروت: دار الساقي، ٢٠١٠م.

الأندلسي، ابن رشد، (*تفسير ما بعد الطبيعة*)، تحقيق عاطف العراقي ا، القاهرة: مكتبة الأسرة، ١٩٩٤م.

النوري، قيس، *الشخصية العربية ومقارباتها الثقافية*، إربد، الأردن: مطبعة مكتبة الطلبة الجامعيين، ط٢، ٢٠٠٢م.

يوسف، خليل يوسف، *القومية العربية ودور التربية في تحقيقها*، رسالة دكتوراه، مخطوطة، مصر،كلية التربية جامعة عين شمس، ١٩٩٨م.

الدوريات:

عبد الهادي، علاء، "*شعرية الهوية ونقض فكرة الأمل*" مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد (٣٦)، (٢٠٠٧م)

ناظم، حسن، " *خالد المعالي في أطياف هولدرلين ضد هولدرلين*"، مجلة نزوى، عدد (٥٢)، (يوليو، ٢٠٠٩م).

بوطيب ، عبد العالي، *إشكالية العلاقة بين الروائي والتاريخي*)، مجلة المناهل، المغرب، عدد (٥٥)، (يونيو ١٩٩٧م).

المعاجم والموسوعات:

المعجم الوجيز: *مجمع اللغة العربية*، القاهرة، ١٩٩٧م.

المعجم الوسيط: *مجمع اللغة العربية*، الجزء الثاني، ١٩٨٩م.

المواقع الإلكترونية:

١ـ http://www.fursahnet/articles/alhaweea.htm .

٢ـ http://books.google.com.sa/books?hl

٣ـ

http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=31768

٤ـ

http://www.bayanealyaoum.press.ma/index.php?view